ذلك التأجيل انصرام عمره فلا تحاولي ان تثنيني عن عزمي وانت ياحبرام فاذا اخذت الزمرُّدة فاذهب بها غدًا الى غالائيل الصيرفي وبعها منهُ باثني عشر الف درهم تنقد التبطي الفين منها وتبقي الرصيد في يد الصيرفي الى ساعة تحتاج اليهِ ستأتي البقية

فتح المكسيك

لا تذكر بلاد المكسيك ولا يذكر فتح الاسبانيين لها الاَّ خطر على بال قارىء التاريخ اسم كورتس القائد السفّاح الذي اجتاحها وهدم دعائم العمران الذي وصفناهُ في الاجزاء السابقة . وعلى هذا الرجل وافعالهِ مدار كلامنا في هذا الفصل والفصول التالية

ولد كورتس سنة ١٤٨٥ من بيت قديم يقال انهُ من نسل ملوك لمبرديا وكان ابوهُ ضابطًا في الجيش مشهورًا بحسن السيرة وكذلك كانت امهُ من فضليات النساء . وبعث بهِ ابوهُ الى مدرسة سلامنكا ليتعلم علم الحقوق فلم يتعلم شيئًا سوى القليل من اللغة اللاتينية واتقن الكتابة والانشاء في لغتهِ وشبَّ شكس الاخلاق كثير المشاكل على غير ما يريدهُ ابواهُ ومال الى الانتظام في سلك الجنود واقتحام المخاطر . وكان الاسبانيون قد اكتشفوا اميركا وطمحت نفوس شبانهم اليها لما فيها من اقتحام الاهوال وجمع الغنائم الكثيرة فدخل سفينة من اسطول ذاهب اليها اوالى الجزائر الهندية كما كانت تسمى وعمرهُ ١٩ سنة حتى اذا بلغ الاسطول جزائر كناري اسرعت السفينة التي كان فيها تاركةً الاسطول لكي تصل قبلهُ الى هسبانيولا لكن العواصف كسرت سواريها فاضطرَّت ان ترتد على عقبها وتسافر مع الاسطول كلهِ ثم تركتهُ قاصدة ان تسبقهُ الى هسبانيولا فسبقها اليها وباع شحنهُ قبل وصولها

وكان كورتس يعرف والي المدينة فمضى اليهِ فوجدهُ غائبًا لكن وكيلهُ رحَّب بهِ وقال لهُ ان الوالي يعطيك ما تشاء من الاراضي الزراعية فقال اني لم آتِ لافلح وازرع بل لاجمع الذهب . ثم جاء الوالي واقنعهُ ان جزائر الارض اربح لهُ من اقتحام الاهوال ومخاطرها فسيحة وكثيرين من الجنود ليقوموا لهُ بزراعتها لكنَّ الطبع غلاَّب فكان كلما رأى الجنود تخرج لاخماد ثورة الاهالي يخرج معها و يشاركها في الاعمال البربرية التي سوَّدت وجه اوربا

وسنة ١٥١١ خرج القائد فلاسكث الاسباني لفتح كوبا فخرج كورتس معهُ وابدى من الهمة والبسالة ما اعجب بهِ رئيسهُ ومن الكياسة والظرف ما حبَّبهُ الى الجنود . وفتح فلاسكث جزيرة كوبا وجُعل واليًا عليها فقرَّب كورتس وجعلهُ من كتَّابهِ ثم انقلب عليهِ كورتس بعد

حين لانهُ وبخهُ على إخلافهِ وعدهُ لفتاة وعدها ان يقترن بها وانضم الى الحزب الناقم عليهِ . ولا تخلو بلاد جديدة من حزب ينقم على واليها لانهُ يتعذَّر عليهِ ارضاء الجميع بالوظائف والمنح . وانتدب الحزب الناقم كورتس ليمضي الى هسبانيولا و يشكو الوالي ونمي الخبر الى الوالي قبل سفر كورتس فقبض عليهِ وكبلهُ بالقيود لكن كورتس احتال على القيود فكسرها وفرَّ من السجن ولجأ الى الكنيسة محتميًا بها . وخاف الوالي ان يخرجهُ من الكنيسة عنوة فوضع حراساً حولها حتى اذا خرج منها ذات يوم قبضوا عليهِ واعيدت قيودهُ وطرح في سفينة ليرسل الى هسبانيولا لكنهُ اخرج قدميهِ من القيود في ظلمة الليل وانسلَّ من السفينة الى قارب بجانبها ودفعهُ فسار بهِ قليلاً ثم طرح نفسهُ في البحر ولجأ الى السباحة وكان قوي الذراعين فبلغ الشاطئ واسرع الى الكنيسة واعتصم بها ورضي ان يقترن بالفتاة التي ابى الاقتران بها اولاً فعفا الوالي عنهُ واصطلحا ووهبهُ الوالي اراضي فسيحة وكثيرين من الهنود ليعملوا لهُ فيها فعكف على الزراعة واستغلال الارض وكان في اراضيهِ مناجم ذهب فاستخرج الذهب منها واثرى وعاش بالرفاهة والنعم مع زوجتهِ

وشاعت في ذلك الحين اخبار المكسيك وبوكتان وما فيهما من الغنى الوافر فاستدعى الوالي كورتس وعقد لهُ على حملة بحرية اليهما فرأى ان احلام الصبا واماني الشباب قد تحققت الآن وابيح لهُ ان يشارك عظماء القواد في افتتاح البلدان التي رأتها عين كولمبس المكتشف الاكبر ولكنهُ قضى قبل ان تطأها قدماهُ فابرقت اسرتهُ وتغيرت اطوارهُ وكاد يطير سروراً فانفق اموالهُ كلها في اعداد الحملة ورهن املاكهُ لكي يتمكن من ذلك فابتاع السفن والمؤن والاسلحة واستعان باصدقائهِ واعدَّ اياهم بجزء من المكاسب لان ظاهر الحملة كان التجارة لا الفتح وانقاذ بعض المسيحيين الذين اسرهم اهالي المكسيك ودعوتهم الى اعتناق الديانة المسيحية ومحالفة ملك اسبانيا واتحافهِ بالهدايا النفيسة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة ومعرفة شواطئ البلاد ومرافئها وانواع حاصلاتها واخلاق اهلها ومقوِّمات عمرانهم ونحو ذلك مما يسهل بهِ التعامل معهم ويتسع نطاق المعارف . هذه هي الغايات الظاهرة التي أُعدَّ لها ذلك الاسطول ولا ندري هل كان كورتس والذين ارسلوهُ يضمرون غاية اخرى وهي الفتح والتغلُّب او كانوا مخلصين في دعواهم ولا غرض آخر لهم . ولا هل كان في الامكان مسالمة الاهالي وترك بلادهم لهم والاكتفاء بمعاملتهم ومحالفتهم ولو لم يعتنقوا الديانة المسيحية . ولكن ذلك ليس بعيداً لان اهالي البرتغال دخلوا ممالك الهند منذ قرون ولم يحاولوا امتلاكها بل اكتفوا باحتلال بعض الثغور والاتجار مع الاهالي

وكان عند والي كوبا نديم مهذار جامع بين البله والهزل والرقاعة فرآهُ ذات يوم ماشياً مع كورتس نحو المرفإ وقال لهُ "كن على حذرٍ منهُ ايها الوالي والاَّ قلب لك ظهر المجن" فقال الوالي لكورتس اسمعتَ ما يقول هذا الرجل فقال كورتس انهُ مجنون ويستحق الجلد على هذا الكلام . لكنَّ كلام هذا المجنون مرق كالسهم في قلب الوالي

وكان لكورتس كثيرون من الحسَّاد فاكثروا الوشاية بهِ وتذكَّر الوالي ما جرى لهُ معهُ قبلاً وكيف عصى امرهُ وفرَّ من وجههِ فعزم ان يعطي قيادة الحملة لرجل آخر واطلع على ذلك اثنين من اخصائهِ فحملا الخبر الى كورتس واشارا عليهِ ان يسرع في السفر اذا شاء ان تبقى القيادة لهُ ولم يكن قد اعدَّ السفن الكافية ولا العدد الكافي من البحارة والجنود ولا مايكفي من المؤن لكنهُ رأى في العجلة السلامة وفي التأني الندامة

وربما فات قوماً جلُّ امرهم من التأني وكان الحزم لو عجلوا

فعقد نيتهُ على السفر ذلك اليوم والليل مرخٍ سدولهُ واستدعى رجالهُ وامرهم بالنزول الى السفن في منتصف الليل ومضى الى الجزار واخذ كل ما اعدَّهُ من اللحم للمدينة واعطاهُ بدلاً منهُ سلسلة كبيرة من الذهب كان يضعها في عنقهِ

وقام اهالي المدينة في الصباح فوجدوا السفن كلها بعيدة عن الشاطئ وفي خبر الى الوالي فنهض حالاً وركب جوادهُ واسرع الى المرفإ ورآهُ كورتس فنزل في قارب مسلح ودنا من الشاطئ فقال لهُ الوالي اتفارقني على هذه الصورة أهذا جزاء المعروف الذي فعلتهُ معك فقال كورتس قضت الضرورة عليَّ بذلك فهل لسعادتكم امرٌ تأمرونني بهِ فوقف الوالي حائراً في امرهِ ورفع كورتس يدهُ اشارة التسليم والوداع وامر رجالهُ ان يعودوا بهِ الى السفينة وعاد الوالي الى قصرهِ وهو يمزّق الارَم وكان ذلك في ١٨ نوفمبر سنة ١٥١٨ . ولعلهُ رأى انهُ اخطأ خطأين الاول انهُ جعل كورتس قائداً لهذه الحملة وهو لا يأتمنهُ والثاني انهُ حاول نزع القيادة منهُ بعد ان امتلك ناصيتها فجعلهُ عدوًّا لهُ لدوداً وهذا من فساد الرأي ولم يكن في طاقة كورتس ان يفعل غير ما فعل بعد ان انفق امواله كلها في اعداد هذه الحملة واستغرق في الدين لاجلها

وبلغ اسطولهُ مكاكا وهي على ١٥ غلوة من سنت جاكو عاصمة كوبا فاخذ منها ما وجدهُ في اراضي ملك اسبانيا من المؤن قائلاً انها دين عليهِ للملك وسار منها الى ترندال فنزل الى البر واستدعى الاهالي للذهاب معهُ واعدَّ اياهم بالربح الكثير فجاءهُ المتطوعون وبعضهم من جنود حملة سابقة وبعضهم من الفرسان الذين كان لهم شأن يذكر في الغزوات السالفة . وبلغهُ

وهو هناك ان سفينة تجارية مشحونة حنطة كانت قريبة من الشاطىء فبعث سفينة من سفنهِ اسرتها واتت بها فكتب لربانها صكًّا بثمنها وثمن وسقها واقنعهُ بالذهاب معهُ هو وبحارتهُ

واتت الرسائل من والي كوبا الى حاكم ترندال يأمرهُ فيها بالقبض على كورتس او يمنعهُ عن السفر لانهُ اناط القيادة بغيرهِ فاطلع الحاكم الضباط على امر الوالي فقالوا لهُ لا تفعل لان الجند كلهُ مع كورتس فيحرقون المدينة على رأسك

ثم سار الى هافانا ورأى هناك كثيرًا من القطن فامر جنودهُ ان يحشوا ثيابهم بهِ حتى لا تخرقها نبال الهنود وقسمهم الى ١١ كتيبة وجعل لكل منها قائدًا محنكًا . وكان علمهُ من المخمل الاسود مطرَّزًا بالذهب وفيهِ صليب تحتهُ السنة زرقاء وبيضاء تمثل لهب النار

وكان عمرهُ حينئذٍ ٣٣ سنة وهو فوق الربعة اصفر الوجه اسود العينين كبيرها عريض المنكبين كبير العضل مشهور بالفروسة واستعمال السلاح لا يتأنق في مأكلهِ ومشربهِ ولا يبالي بالتعب يلبس اللباس الفاخر الخالي من الزخرفة مع قليل من الحلى الثمينة جدًّا وهو طلق المحيَّا لكنهُ شديد الحذر حازم الرأي يشعر من يقترب منهُ ان لا بدَّ لهُ من طاعتهِ

لما تمَّ استعدادهُ للسفر كان معهُ احدى عشرة سفينة اكبرها سفينتهُ محمولها مئة طن ونتلوها ثلاث تحمل كل منها سبعون او ثمانون طنًّا والبواقي صغيرات وجعل لها كلها ربانًا واحدًا اسمهُ انطون الامين وقد كان هذا الرجل ربانًا لسفن كولمبس في سفرتهِ الاولى. وعدَّ رجالهُ فوجدهم ١١٠ من البحارة و ٥٥٢ من الجنود ومئتا رجل من الهنود وكان معهُ عشرة مدافع كبيرة واربعة صغيرة وستة عشر جوادًا ووجود الجياد لم يكن بالامر السهل لغلاء ثمنها فان الجواد الواحد كان يساوي نحو خمس مئة ريال

وخاطب جنودهُ قبل سفرهِ قائلاً انهم مقدمون على عمل يخلد اسماءهم في صفحات التاريخ وذاهبون الى بلاد اوسع من كل بلاد وطأتها اقدام الاوربيين قبلاً واعمر منها واكثر سكانًا فامامهم شهرة واسعة ولكنهم لا ينالونها الاَّ بشق الانفس ولا يُنال الامر العظيم الاَّ بالتعب الكثير الى ان قال " واني خاطرت بكل ما املكهُ لكي انال الشهرة التي تفوق كل قنية وان كنتم تطمعون بالغنى فثقوا بي واتكلوا عليَّ فتغنموا ما لم يحلم بهِ ابناء وطنكم . انتم شرذمة صغيرة ولكنكم رجال بواسل فاعتمدوا على الله الذي لم يخيب الاسبانيين قط فهو يقيكم ولو احاطت بكم زُمَر الاعداء واقد خرجتم لتحاربوا باسمهِ فثقوا بهِ والظفر حليف لكم

فهتفوا لهُ فرحين وغنوا الاغاني الحماسية واقلعوا في الثامن عشر من شهر فبراير سنة ١٥١٩ قاصدين سواحل يوكتان وبلاد المكسيك

وتغيَّر الهواء بعد ان اقلعوا وثارت العواصف فتفرَّقت السفن بعضها عن بعض وعبثت بها الرياح حتى لم تصل الى جزيرة كزومال الاَّ بشق الأنفس وكانت سفينة كورتس آخر السفن التي وصلت اليها فرأى ان قائداً من قواده وصل قبله ودخل هياكل الاهالي ونهب ما فيها فهربوا من وجوهه الى قلب الجزيرة فلامهُ كورتس على ما فعل لوماً شديداً واتى باثنين من الاسرى واخبرهما بواسطة الترجمان ان ما حدث كان خطأً من جنوده وطيَّب خاطرهما فاكثر لهما الصلاة وارسلهما ليخبرا اهالي بلادهما ليرجعوا الى بيوتهم فرجعوا واعطاهم كثيراً مما معهُ من الحلي والخرز وآلات القطع واخذ بدلاً منها شيئاً من الحلى الذهبية

وبحث عن الاسرى الذين قيل لهُ انهم كانوا في اسر اهالي المكسيك فبلغهُ انهم لا يزالون هناك ثم اقتدى واحداً منهم بعد ان اقام زمناً طويلاً في تلك البلاد وتعلم لغة اهلها واكرم مثواهُ واخذهُ معهُ ليستعملهُ ترجماناً بينهُ وبينهم . وطلب من اهالي كزومال أن يقلعوا عن عبادة الاوثان ويتنصروا ولما رأى ان كلامهُ لا يقنعهم دخل الهياكل وطرح الاصنام منها لكي يري عبَّادها انها لا تستطيع ان تُنقِذ نفسها واقام مذبحاً في احدها ووضع عليهِ صورة العذراء والطفل وكان معهُ مبشران للخدمة الدينية فلم يعترضهُ الاهالي بل رضخوا لحكمهِ بعد ما رأوا ما فعلهُ باصنامهم . وترك جزيرتهم في الرابع من شهر مارس (اذار) واقلع ووجهتهُ بلاد المكسيك الى ان بلغ مصب نهر غريجلفا فوجد الرمل كثيراً فيهِ يصدهُ عن الصعود بسفنهِ الكبيرة فتركها وركب القوارب مع البعض من رجالهِ وصعد في النهر وكانت الاشجار الغبياء تظلل ضفتيهِ فرأى من خلالها السكان يرقبونهُ بعيون ملئها الغيظ فاوجس خيفة وجعل يصعد في النهر على حذرٍ منهم حتى اذا بلغ متفرَّجاً من الارض وجد فيهِ كثيرين من السكان مجتمعين فطلب منهم بواسطة الترجمان ان يسمحوا لهُ في النزول على البر وقال لهم انهُ لا يقصد لهم شرًّا وانما غرضهُ الاتجار معهم اما هم فشهروا اسلحتهم كمن يتهددهُ فرأى من الحكمة ان يخفض لهم جناحهُ ودار بقواربهِ الى جزيرة في وسط النهر ونزل عليها تلك الليلة

وما طلع الفجر حتى رأى الاسبانيون ان الضفَّة المقابلة لهم قد تغطت بالهنود وقواربهم تملا النهر امامها وهي مشحونة بالمقاتلة فقال كورتس لا بدَّ لنا اذاً من ان نلجأ الى القوة وامر مئة من رجالهِ ان ينزلوا الى البحر من ذلك المكان بقيادة احد ضباطهِ واسمهُ اقيلا ويسيروا الى مدينة الهنود واسمها تباسكو ودنا هو مع بقية رجالهِ من الهنود عازماً ان يستعمل معهم اللين اولاً فان لم يفلح فالشدة وخاطبهم بواسطة الترجمان قائلاً انهُ لا يبغي الاَّ ان يسمحوا لهُ بالنزول الى البر وانهُ يود الاحتفاظ بالعلاقات الودية التي كانت بين قومهِ وبين سكان المكسيك

وانهُ اذا اريق دم احد فهم المطالبون بذلك وهو لا يقصد سفك الدم ولا نفع لهم من مقاومتهِ لانهُ عازم ان ينزل على كل حال ويبيت في تباسكو رضوا او لم يرضوا . فاجابهُ الهنود بالصراخ والنبال ولعلهم لم يفهموا شيئاً مما خاطبهم بهِ

فقال كورتس لقد برئت بعهدي لمولاي وانا من دم هؤلاء الناس بريء ثم امر ان تدنو قواربهُ من قوارب الهنود وابتدأ الكفاح يدًا ليد فكان الفوز لرجالهِ فهرب الهنود من وجههم الى البر وجعلوا يرشقونهم بالنبال والعيدان المشتعلة وكانت الارض موحلة فلصق خفُّ كورتس بها وتعذَّر عليهِ نزعهُ فحارب حافياً. واصلى الاسبانيون الهنود نارًا حامية من بنادقهم فذعروا من لهب البارود وصوتهِ ولم يكونوا قد رأوا ذلك من قبل وارتدوا على اعقابهم واحتموا وراء سورٍ من الخشب لكن الاسبانيين وصلوا اليهم حالاً واخرجوهم من ورائهِ فهربوا من وجههم الى مدينتهم واحتموا فيها فتبعوهم اليها

وكان اثيلا قد بلغ المدينة من جهة اخرى فاحاط بها الاسبانيون من جهتين ووضعوها بين نارين حاميتين ورأى الاهالي ان لا قبَل لهم بمقاومة هذا العدو اللدود فانهزموا من وجههِ وكانوا قد اخرجوا نساءهم واولادهم وامتعتهم من المدينة فجدوا في اثرها واخلوا بيوتهم الاسبانيين فدخلوها ونهبوا ما فيها فلم يجدوا فيهِ الاَّ قليلاً من الذهب . واكثر البيوت من الطين ولكن بعضها كبير مبني بالحجر والجير (الكلس) واستولى كورتس على المدينة باسم ملك قشتالة وقال انها صارت من املاك ذلك الملك وانهُ (اي كورتس) يحميها من كل عدو بسيفهِ وترسهِ وهذا كان اسلوب الفتح والامتلاك عندهم . وكُتب ذلك في كتاب ووضع الشهود اسماءهم فيهِ

ونام كورتس ورجالهُ تلك الليلة في المدينة بعد ان رتَّبوا الحرَّاس حولهم ونهض في الصباح وبعث فرقتين من رجالهِ للاستكشاف فالتقى الهنود باحداها وكادوا يفتكون بها لو لم يبلغ صراخهم الفرقة الثانية فاسرعت الى نجدتها وارتدَّت الفرقتان نحو المدينة لان الهنود كانوا كثارًا جدًّا فخرج كورتس من المدينة ببقية رجالهِ واستعرت نار القتال فابلى الاسبانيون في الهنود بلاءً حسناً حتى ردوهم على اعقابهم. واتضح لكورتس حينئذٍ ان البلاد كلها قد هبَّت لمقاومتهِ لانها انفت مما جرى في جزيرة تباسكو. فندم على ما فرط منهُ ولات ساعة مندم ورأى انهُ لم يبقَ امامهُ الاَّ مقابلة القوة بالقوَّة لانهُ اذا ارتدَّ ضعفت عزائم رجالهِ ولم يعودوا يستطيعون شيئاً وطمع الهنود بالاسبانيين في كل مكان فارسل الجرحى الى السفن واتى منها ببقية الرجال وستة مدافع وبالخيل وكانت قوائم الخيل قد يبست من طول الوقوف ولكنها لم تجرِ على البر

طويلاً حتى لانت وطلبت المزيد . وامَّر واحداً على المدفعية وواحداً على المشاة وابقى لنفسهِ قيادة الفرسان وكان بينهم كثيرون من نخبة الابطال . وقضى الليل على احرّ من جمر القتاد فلم يغمض لهُ جفن بل بات الليل كلهُ يطوف حول معسكرهِ ولما بزغ الفجر صفَّ رجالهُ ليهجموا على العدو قبل ان يهجم عليهم عالماً ان شروعهم في الهجوم يقوي عزائمهم وامر المشاة والمدفعية ان يهجموا على القلب ودار هو بالفرسان ليأتوا العدو من احد الجناحين او من الساقة وكانت الارض مزروعة ذرة وفيها كثير من المساقي فصعب عليهِ وعلى رجالهِ السير فيها لكن كان فيها سكة مطروقة فجروا المدافع عليها . ومشى الجنود ثلاثة اميال وكان الحرُّ شديداً لكن ثيابهم كانت محشوَّة بالقطن كما تقدَّم فوقتهم من حر الشمس كما حمتهم من النبال واخيراً وصلوا الى سهل فسيح ورأوا صفوف الهنود فوقهُ على مرتفعات من الارض حتى اذا دنا الاسبانيون منهم وهم يتعثرون في المستنقعات صبُّوا عليهم النبال والحجارة فنزلت على خوذهم وتروسهم كوابل المطر وجُرح كثيرون منهم قبلما خرجوا من السهل وصاروا على مقربة من الهنود وللحال شرعوا يصبون عليهم نار البنادق فيحصدونهم حصداً وكان الهنود كثاراً فلم يرعهم ذلك بل اطبقوا على الاسبانيين من كل ناحية فثبت الاسبانيون في مواقفهم منتظرين قدوم الفرسان لنجدتهم وظلوا على ذلك اكثر من ساعة حتى ضاق خناقهم وزهقت ارواحهم وبينما هم على هذه الحال رأوا التشويش في الصفوف البعيدة من الهنود فماجت واضطربت وامتدَّ الاضطراب الى بقية الجيش وسمع الاسبانيون اخوانهم الفرسان ينادون باسم مار يعقوب ومار بطرس ورأوا بريق سيوفهم وامان خوذهم وهم يخوضون غمرات الردى ويردون الهنود يمنةً ويسرة فانتعشت نفوسهم واشتدَّت عزائمهم وخُيِّل لهم ان ذينك القديسين اتيا لنجدتهم

وذعر الهنود من الفرسان ذعراً شديداً لانهم حسبوا الفرس والفارس حيواناً واحداً ولم يكونوا قد رأوا فرساً من قبلُ فطرحوا اسلحتهم وفروا من وجههم ولم يكن الاَّ القليل حتى انهزم الهنود كلهم ولم يبقَ في ساحة الوغى الاَّ اشلاء القتلى والجرحى وتبعهم كورتس ورجالهُ يهتفون بالنصر المبين حاسبين ان الله سبحانهُ ارسل اثنين من قديسيهِ ليحاربا عنهم . وامر كورتس رجالهُ ان لا يقتفوا اثر العدو ثم جمعهم وشكر الله على هذا الفوز . وبنيت مدينة هناك تذكاراً لهذه المعركة جعلت عاصمة لتلك الولاية

ولا يُعلَم كم كان عدد الهنود بالتحقيق ولا كم قُتل منهم واكثر الاقوال على انهم كانوا خمس فرق في كل فرقة ثمانية آلاف نفس . والاختلاف كثير في عدد من قتل منهم من الف الى ثلاثين الفاً ويقال انهُ لم يُقتل من الاسبانيين الاَّ اثنان ولم يجرَح منهم الاَّ مئة

واسر الاسبانيون كثيرين من الهنود وبينهم اثنان من شيوخهم فاطلقهم كورتس وبعث معهم الى اهالي بلادهم يقول انهُ يتجاوز عمَّا مضى اذا خضعوا لهُ والاَّ دوَّخ بلادهم وقتل كل من فيها ولم يعفُ عن امرأة ولا عن ولد

فخاف الهنود من هذا الوعيد وجاء بعض شيوخهم في الصباح بثياب سوداء علامة التذلُّل وطلبوا ان يسمح لهم بدفن قتلاهم فاذن لهم في ذلك وطلب منهم ان يأتيهُ رؤساؤهم لكي يعقد معهم هدنةً او صلحاً فجاءهُ الرؤساء حالاً بموكب عظيم وهدايا نفيسة وفي جملتها عشرون جارية حسناء واحدة منهنَّ اصطفاها كورتس لنفسهِ وتزوج بها وكان لها اليد الطولى في فتح المكسيك كما سيجيء

وعقد الصلح بين كورتس ورؤساء تباسكا وفتش الاسبانيون عن الذهب العين ضالتهم المنشودة الذي سفكوا لاجلهِ دماء اولئك الابرياء فقيل لهم ان معادنهُ ليست هناك بل في بلاد المكسيك غرباً فعادوا الى الغاية الاخرى التي جاؤوا لاجلها وهي تنصير الاهالي وردعهم عن عبادة الاصنام فانقاد الاهالي اليهم بعد الذي شاهدوهُ من فتكهم بهم. وكان اليوم التالي احد الاثنين فاحتفل بهِ الاسبانيون احتفالاً باهراً وساروا بموكب حافل حاملين سعوف النخل وسار الهنود معهم رجالاً ونساء مدهوشين الى ان بلغوا الهيكل الاكبر فدخلوهُ والاسبانيون يرنمون والهنود ينظرون اليهم مبهوتين ويقال انهم بكوا فرحاً مما شاهدوا . ولو لم تمحُ حسنات القرن الماضي سيئات القرنين اللذين سبقاهُ لقلنا انهم بكوا وحق لهم البكاء على ملكهم الذي زال وعمرانهم الذي تقوضت اركانهُ

ولا يبعد ان تكون الديانة المسيحية قد دخلت تلك البلاد منذ عهد قديم جدًّا كما ابنَّا في الكلام على رسول المكسيك الاَّ ان تعاليمها لم ترسخ في النفوس قبلما عاد ذلك الرسول الى اوربا فجهل الناس تعاليمهُ رويداً رويداً ولم يبقَ عندهم الاَّ آثارها . ثم تغيرت شؤون السكان بمجيء الغزاة من الجهات الشمالية فكادت تلك الآثار تمحى ولم يبقَ الاَّ ظلها حتى اذا جاء الاسبانيون تنبهت الاذهان بحفلاتهم الدينية الى ما يكاد يمحى منها وسهل على اهالي المكسيك ان يقبلوا ما في تقومهم اثر منهُ

وودَّع كورتس ورجالهُ الهنود وقد حسبوهم الآن اخواناً لهم وعادوا الى قواربهم وسعوف النخل في ايديهم ونزلوا في النهر الى ان بلغوا السفن فاقلعوا بها قاصدين سواحل المكسيك ومناجم النضار وسيأتي تفصيل ما فعلوهُ فيها في الجزء التالي